ذاكرة أمّي... ذاكرة ثورة لم تُكتب بعد

مريم بو زيد

في تجربة العمل على ذاكرة النساء والحرب (الثورة التحريريّة الجزائريّة) تمّ استجواب بعض مَنْ خضْنَ تجربة العمل الثوريّ والانخراط في الثورة التحريريّة. ففي مقابل الإشادة ببعضهنّ مثل الجميلات، في وسائل الإعلام والدِّراسات، لم تَجد تلك المُستجوَبات مَن يُسمِع صوتهنّ إلى أيّ جهة إعلاميّة أو سياسيّة للتعبير عن تضحياتهنّ ومدى مُعاناتهنّ وهنّ فتيات صغار... وفي سِنّ مُراهقتهنّ اخترنَ المُواجَهة المزدوجة، مُواجَهة المُستعمِر ومُواجَهة المُجتمع. وعلى الرّغم مِن كلّ ذلك كان لديهنّ الأمل في تحرُّرٍ حقيقيٍّ بعد الاستقلال. لكنّ التعتيم والتغييب ازداد، وبقيت «سلطة الأيقونات» هي المُتكرّرة والتي تطبع ثورة شعبيّة حقيقيّة... ازدادت الصدمات وازداد الإحباط لدى هؤلاء السيِّدات في كلّ مناسبات الحديث والاحتفال بالحرب التحريريّة.

أحاول في هذه الورقة نقْلَ أجزاءٍ من سيرة حياة والدتي باعتبارها شاهدة على ثورة «أَجحفت» في حقِّها. هي ابنة الرّابعة عشرة عاماً التي قرَّرت أن تنتفِضَ على واقعٍ استعماريٍّ مُزرٍ، فقرَّرت أن تحمل السِّلاح وتدافع عن كرامتها وكرامة وطنها. لكنّها اصطدمت بالمُجتمع التقليديّ وبعنف

ظروف تلك المرحلة. ما زالت تحكي تفاصيل عدم توقُّفها عن النضال حتّى الاستقلال. ما زالت تُناضِل من أجل اعتراف السلطات بتضحياتها وتضحيات كلّ منطقتها التي بقيت إلى ما بعد الاستقلال من مناطق الظلّ والظلمة. ذاكرة والدتي ذاكرة فولاذيّة وتفاصيل حكاياتها دقيقة وملوَّنة بألوان الطبيعة والطقس ومواسم الخضر والفواكه. هي شاهدة على ثقافة تلك الفترة غير البعيدة لكنّها مُهمَلة. تعرف تفاصيل اللِّباس والحُلى... وطقوس الزراعة والنسيج والبناء... تسجيلاتي معها لا تنتهي... وحكايتها لا تنضب...

مقدِّمة

تعود بداية الاهتمام بمُشارَكة النساء في الحرب التحريريّة (الثورة التحريريّة)، وتحديداً نساء الأرياف والمناطق المعزولة، إلى ما وجدته في أثناء بحوثي الأكاديميّة في مجال الأنثروبولوجيا؛ إذ، في كلّ مرّة، يبرز ويتشكّل ذلك الخيط القويّ الذي كان يجمع النساء، من مختلف مناطق البلاد، بالمُدن الوسطى والأحياء الشعبيّة، وبالقرى والأرياف، وحتّى الصحراء الكبرى منطقة تواجُد طوارق الجزائر. تنتظم ذاكرتهنّ بتاريخ الثورة، بطريقة أو بأخرى. ثورة أَحدثت تغييراتٍ على بعض المعايير والقِيَم الاجتماعيّة وقَلبت بعض الأنظمة والأنساق الاجتماعيّة والثقافيّة التي كانت سائدة. فكان كلّ شيءٍ يبدأ من ذلك الماضي القريب المسكون بالألم، ألم الحرب والمُعاناة والفقر والحاجة والذلّ... تبدأ سيرة حياة النساء، ممَّن عايشْنَ ووُلِدْنَ في تلك الفترة، بسيرة الحرب والثورة وما خلَّفته من مَجازر وتهجير وسجن ومُعاناةٍ يوميّة إلى أن جاءت «نعمة الاستقلال». مهما كانت إشكاليّة البحث، إنْ كان عن الاقتصاد غير الرسميّ، المُوازي، أو عن إشكاليّة الجسد المُنتِج، أو عن الطقوس واحتفالات الزّواج أو الموسيقى... أو عن أيّ موضوع كان، فلا بدّ أن يُترَك المجالُ واسعاً أمام الإدلاء بشهادات ومُعاينات وحكايات عن الثورة التحريريّة. حتّى وإن لم يكُن هاجسي كباحثة، مثل هذه الإشكاليّات، فإنّ حَجْم المُعطيات الأثنوغرافيّة، التي تتسلسل عن تلك الحياة الصعبة وتصوير خفقانها، جعل السؤال يكبر بداخلي عندما تُذكِّرني والدتي بالتسجيلات التي قمتُ بها مع صديقتها «خديجة». في كلّ مناسبة كانت تُذكِّرني بوعودي «ألم تكُن فكرتك وقتها أن تؤلّفي كِتاباً عنّا؟ لماذا تُماطِلين؟ لماذا لا تُبادرين بالكتابة عن هذه المنطقة ومُعاناتنا فيها وعن

شهدائنا الذين لا أثر لهم في متحف المُجاهِد والجيش؟ آهٍ لو كنتُ أقرأ وأكتب... لَما كنتُ تركتُ واقعةً إلّا وكتبتها وسجّلتها ولَكتبت للمسؤولين عن حَجْم مُعاناتنا... أراهم في مختلف القنوات يأتون ويتكلّمون، ويُقدِّمون شهاداتهم، كاذبة كانت أم صادقة، لكنّ شهاداتهم لا تُغطّي كلَّ تاريخ الثورة الشعبيّة التي شارك فيها حتّى الحيوانات.

ثورة على النِّظام الاجتماعيّ في أربعينيّات القرن الماضي

ثورة «قدّورة»[1]

أَسهمت العديد من العوامل الأُسريّة والاجتماعيّة والتاريخيّة، في أن تسرِيَ في عروق والدتي الثورة ضدّ الظلم، فضلاً عن العوامل الجسديّة. فبعد وفاة والدها في العام 1945، رفضت جدّتي السكن في بيت أسرتها الممتدّة، الجدّ والجدّة والأخوال وزوجاتهم، كما رفضت أن يأخذ إخوةُ زوجها أولادها ليعيشوا عندهم. كما رفضت رفضاً قاطعاً الزواج مرّة أخرى. رفضت أن يأخذ أحدٌ أملاكَ أولادها أو أن يتربّوا مكسوري الخاطر تحت «سيطرةٍ» ما أو سلطة غير سلطتها أو سلطة والدهم. كم كان ثمن ذلك باهظاً، لكنّها تحمّلت تبعاته. عاشت في بيتها العامر بالخيرات ممّا تركه زوجها وممّا اكتسبته من مجهودها وكدّها وتعبها. كانت ثورة اجتماعيّة غير مألوفة أن تعيش أرملة بعيدة عن سلطة باتريارکيّة تلجمها، لكنّها كانت امرأة بعشرة رجال أشدّاء، كانت لها الكلمة، ليس لأنّ كلمتها كانت مسموعة «بالفطرة»، بل لأنّها فَرضت نفسَها أيضاً بقوّتها وكانت تُعبِّر عمّا تشعر بأنّه حقٌّ ولو كان ذلك على رقبتها. لم تكُن تُجامِل. كلماتها توحي بفظاظةٍ كبيرة، وهي تصوِّب ما تراه خطأً، لكنْ بقلبٍ أبيض لا يحقد أبداً وهذا ما كان يجعلها محبوبة، وكان ما تقوله يُصبح بسرعة مضربَ أمثال. عاشت برفقة أولادها تحمي مصالحهم وتوفِّر الخيرات التي تعمّ على الجميع. لم تكُن تمنع خيرات الله عن أحد. عاش مَن عاش ببذخ من كَرمَها من أهلها، فكانت تتصدّق وتُزكّي قبل أن تبرد «النعمة» من حوافر الخيل التي كانت تدرس القمح في البيادر. كان بيتُها عامراً بخوابي الزيت العملاقة، وجرار العسل و«كوافي»[2]

(1) كان اسم جدّتي، وهو تأنيث لاسم جدّها «قدّور» ووالدها سعيد..وذلك تقديراً لها ولقوّتها.

(2) آكوفي، وجمعه «إكوفان» عبارة عن أوعية طينيّة كبيرة، مثل الجرار الكبيرة، تلتصق بالسور، تُصنَع من الطين الممزوج بالتّين وروث الأبقار، مِن دون شوي.

القمح والحمّص والتّين المجفَّف. وكان بَيت المؤونة الطينيّ تظهر على أسواره تشقّقاتٍ في سقفه وعلى جدرانه من ثِقل ما يُعلَّق، كعناقيد الفلفل الأحمر العملاقة والبصل والثوم وكلّ المنتوجات الزراعيّة الأخرى. امرأة حديديّة لا تكلّ ولا تملّ، لا تترك شبراً من أرضها بوراً ولا شجرة من أشجارها الكثيرة مِن دون عناية، وهذا ألَّب ضدّها المواجع. لكن لا يجرؤ أحدٌ على أن يتعدّى على حرمة بَيتها لأنّها تمتلك من الشجاعة التي ليست للرجال وتمتلك أسلحة لا يمتلكها أيضاً الرجال، وهذا قبل اندلاع الثورة. عاشت والدتي، صغرى البنات، مع أخواتها الأربع وأخيهم الأصغر، آخر العنقود، مثلها مثل الصبيّ تخرج معه لترعى قطيع الماعز والأغنام، في بيتٍ فيه بغال وحصان وجمال، وتعود إلى البيت بعناد الأطفال وعدم الاستسلام للراحة. شقاوة الصغار. وكان يُطلَب منها أن تقوم بأعمال البيت النسائيّة من جلب الماء من الينابيع أو الطبخ وكانت ترفض بحجّة أنّها متعبة من الرعي والسير على الأقدام حافية في البرد والثلوج. وكانت والدتها تُساندها وتنهر أخواتها.

ذاكرة أمّي والثورة: ذاكرة لا تترنّح[3]

تقول «نشفى مليح كي بدأت الثورة»[4] (أتذكَّر جيِّداً عندما بدأت الثورة). مِن عادات والدتي وهي تحكي عن الأحداث التاريخيّة أن تربطها بالفصول وأحوال الطبيعة وبتفاصيل الحياة اليوميّة الماضية، زيادة للتأكيد ربّما لأنّها عاشت في فضاءٍ مفتوح، ولم تكُن تمكث في البيت سوى للأكل والنوم. تسرد أحداث البداية كالتالي: «عندما بدأت الثورة (كان عمرها آنذاك 12 سنة) جاء ستّة أشخاص للبحث عن الأسلحة وجمْعها. كنّا نسكن في بيت جدّي مع أخوالي، رحمهم الله ورحمَ الشهداء. جاؤوا قُبَيْل المغرب، كنتُ أنوي الذهاب إلى بَيت الخلاء (وفعلاً خلاء) فنادوا عليّ وسألوني عن مكان تواجد أخوالي وأخبرتهم بأنّهم في البيت، فطلبوا منّي مناداتهم وفعلتُ والتقوا بهم عند باب

(3) إشارة إلى رواية الطّاهر بن جلون «حين تترنّح ذاكرة أمّي». لم تترنَّح ذاكرة والدتي يوماً إذا تعلَّق الأمر بما قامت به أثناء الثورة ومختلف أحداث تلك الفترة... خانها القلم والقراءة والكتابة. قالت لو كنتُ أعرف الكتابة لكتبتُ كلّ شيء ولأخذتُ حقّي. دَرست في العام 2001 في مركز محو الأميّة مدّة شهرَيْن تعلَّمت القراءة والكتابة، لكنّها لم تُواصل المشوار بسبب ميلاد ابنتي.كانت تنتظر الحدث بفارغ الصبر. كان عليّ دَين تجاهها ولم أفِ به، وهو أن أعلِّمها وأمحو أميّة الكتابة والقراءة عندها... أنا مَن ترنَّحت ذاكرتي من بعدها.

(4) من مُقابلة أُجريت مع والدتي السيّدة تشينة خدوجة في بَيتها في أولاد موسى في 12 آذار/مارس 2016.

الإسطبل الذي كانت فيه الجمال وطلبوا منهم إحضار سلاحهم، بعدما طلبوا من أهل القرية أن يجتمعوا في الجامع وكلٌّ واحد يُحضِر معه ما يمتلكه من سلاح من أجل مساعدة الثورة. فأعطاهم خالي «علي» أربع بنادق وأربعة مسدَّسات... فطلبوا من والدتي تسليمهم سلاحها (حيث كانت تملك مسدَّسَين كانت قد اشترتهما حديثاً من القرية المُجاورة) أحدهما يَسع تسع رصاصات والثاني ستّ رصاصات وبندقيّة صيد. فرفَضت بحجّة أنّ السلاح عند إخوتها وقد قاموا بتسليمه لهم. ووالدتي هي مَن اشترت لإخوتها أسلحتهم. تمّت الوشاية عنها للمسؤولين، وأنّها رفضت مساعدة الثوّار والثورة فذهبت عند أحد هؤلاء المسؤولين ورافقتُها أنا، كنتُ دائماً «ألتصق بها» أينما ذهبت، وعندما قابلتِ السيّد المدعو «بوطريق»[5] لتفنِّدَ ما أُشيع عنها بأنّها رفضت مساندة الثورة ومَنْحهم السلاح. فعندما قابلته: «قال لها احضِري لي السلاح يا بنتي، وردّت عليه وماذا ستفعل به، قال لها للدفاع عن الثورة وطرد فرنسا... فردّت عليه وأنا مَن يحميني... لقد اشتريتُ السلاح من أجل بناتي، ومن أجل أن أحمِيَ نفسي... قال لها أنا أحميك... قالت له لا يُمكِنك حمايتي وباللّيل عندما تكون نائماً، مَن سيحميني... طمأنها وأكّد أنّه سيحميها وأنّ لا شيء سيصيبها ما دام حيّاً... إذا حميتك ودافعت عنك أعرفي بأنّني رجل وإذا لم أستطع فعل ذلك فلست «بحجم كلمتي»... وعندما تحطّ الحرب أوزارها سأعيد لك سلاحَك... فذهبت والدتي «المسكينة» وأحضرت أسلحتها، مسدَّسين وبندقيّة صيد وسلّمتها له»... بعدما قدّم لها ضمانات الحماية، التي كانت تشكِّك فيها «قدّورة» لأنّها تُدرِك أنّ ما يحكّ اللَّحم سوى الظِّفر... لكنّها استسلمت لأوامر الثورة.

طفولة قبيل الحرب، شياطين وملائكة

عاشت في البيت الكبير، بيت جدِّها، الذي فيه طابقٌ أرضيّ وطابقٌ علويّ. بيت طينيّ، هندسة محليّة، هندسة «بيت قبائلي» يتكوّن من مصرف للمياه يأتي على اليسار وهو مكان مخصَّص للحيوانات مثل الماعز أو الغنم وحتّى الأبقار[6]. وعلى ارتفاع منه

(5) الذي سيصبح له شان بعد انطلاق الثورة وانتشارها إذ اصبح يطلق عليه «البوشي» بالفرنسية وتعني الذباح. كان يقوم بالتخلص من الخونة ذبحا.

(6) يطلق عليها بـ «اداينين» باللهجة القبائليّة أو «الداينين» بالعربيّة العامية.

ثمّة ما يُطلَق عليه «دكّانة»[7] وفيها الموقد (الكانون) الذي كانوا يتحلّقون حوله في ليالي الشتاء الطويلة كلّهم: الجدّة والجدّ وأخوتها وأخيها لينعموا بالدفء والحنان ولسماع الحكايات والأغاني.. وأواني المؤونة التي يُطلَق عليه «إكوفان» لتخزين القمح والدقيق والتّين وغيرها من الموادّ وتكون ملتصقة بحائط الغرفة التي تُستخدَم للتدفئة والنوم... للبشر وللحيوانات.

تعترف والدتي بأنّ أطفال ذلك الوقت كانوا «شواطن» أي شياطين وكثيري الشغب، لكنّ كلَّ شيء يقومون به خارج البيوت، في الطبيعة الشاسعة. وكانت تلك «الشيطنة الطفوليّة»حلوة. كنّا نُشاغِب نجري وراء القطعان، ولم نكُن نعرف العلاقات الذئبيّة التي تحكم العلاقات بين الذكور والإناث. البنات والصبيان يُمضون اليوم في الخارج «هائمين» في المراعي (أبناء الأعمام والأخوال). كانوا مُتحابّين، لدرجة، كما قالت والدتي، عندما يجد خالكِ (تُخاطبني) أي أخيها، تينة حلوة اقتسمُها معه، حيث آكل النصف وأُعطيه النصف الآخر. لا أحد يستحوذ على المتعة بمفرده. بلغت تلك الشيطنة مبلغها، حيث كانت تلعب الفتيات الصغيرات بالعرائس المصنوعة من القصب، فوق شجرة الخرّوب العملاقة التي تُغطّي الطرقات وحتّى البيوت، وعندما يتبوّل الصغار، يعتقد المارّة من الكبار بأنّها تمطر أو أنّه رذاذ المطر فقط.

تواصل والدتي وصف العلاقة بوالدتها، التي كانت تقوم بأعمال الرجال في الخارج ولم تكُن «حنونة» بمقدار ما يحتاج إليه الأبناء، بل كانت تُظهِر قسوةً لا نظير لها في تربيتهم. إذا كانت والدتنا تحمينا من «العدوان» الخارجي، فليست هي من ربّتنا بل تربَّينا عند جدّتي (لالا خدوجة) ونانا (مولود)[8]. كنّا طيلة النهار نَجري بين المَراعي ونعمل على تنقية الزرع وجمْع الحبوب والسنابل المُتبقّية بعدما تُحصَد المَحاصيل. كما كنّا نُساعد في أعمال الحقل من غرسٍ وسقيٍ. وكنا نُقيِّل تحت الأشجار. عندما يتعب أخوالي

(7) أو مايطلق عليها «ثادوكّانت» وهي عبارة عن مقعد مستطيل، أو مصطبة، مبني من بالطين والحجارة والتي تنتصب عليها «إكوفان» لتخزين المواد المختلفة لاسيّما المنتوجات النباتيّة. وفي أسفلها توجد فتحات تستخدم في حفظ العديد من الأغراض.

(8) كانت جدّة والدتي (لالا خدوجة كما نطلق عليها جميعاً) و«لالا» لفظ كبار وإجلال لذوات المكانة المرموقة وكبيرات العائلة وللوليّات الصالحات. ونانا «مولود» نانا أيضا لفظ تقدير لمَن هنّ أكبر منّا سنّاً مهما كانت درجة القرابة. ولالا خدوجة ونانا مولود متزوّجتان من إخوة، جدّ والدتي قدور وأخيه محمّد.

من تلك الأعمال تعوّضهم نساء العائلة مع البنات للسقي. كنّا لا نتعب ولا نملّ. وفي اللَّيل نقصد بيت «نانا مولود» (هي أيضاً سُمِّيَت على اسم والدها). كانت تحبّنا وتخاف علينا. وكان صدرها يتّسع للجميع. ففي أيّام الشتاء تُشعِل النارَ بوساطة جذوع كبيرة، ومَن تبلَّلت ثيابه مِنّا كانت تقوم بتجفيفها بوضعها فوق ذلك الحطب لنرتديها مرّة ثانية بعدما تجفّ وكانت تُعطينا لحافاً نتدثَّر فيه إلى أن تجفَّ الملابسُ المبلَّلة... وكانت تضع الفراش بالقرب من الموقد الذي يظلّ مشتعلاً والذي ترقد بجانبه، تُراقِب أيّ شرارة تصدر منه. كما كانت تُطعمنا ممّا تطبخ من مأكولات شهيّة. بينما كانت والدتي دائماً منهمكة في مشاغلها في بيتنا في الجهة المقابلة للوادي. دائماً تقف الذاكرة عند فواصل زمنيّة مؤلمة، ذاكرة الأطفال التي تُشبِه ذاكرة الحاسوب، تلتقط كلَّ شاردةٍ وواردةٍ، ولن تنسى التفاصيل إلّا إذا تمّ حذفها بهزّاتٍ وصدمات أقوى. تروي والدتي ما حدث لابنة عمِّها، فتقول: «لم يسلم أحد من أذى الاستعمار حتّى الرضَّع». تنقل الواقعة تلك بكثيرٍ من الشجن والأسى: «عمّي (بابا دودح[9]) قتلوا ابنته الرضيعة التي كانت في مَهدها (الدوح) وكان عمرها لا يتعدّى الشهرَيْن فأخذوا المهد ورموه أسفل إلى «الداينين»، لم تمُت في ساعتها، بل بقيت تئنّ وتئنّ، ولم تشرب قطرة حليب واحدة. ثمّ ماتت بعد يومَين. قاموا بتهشيم عظامها الطريّة، فكلّما أمسكوا بعضاً من أعضائها كانت تصرخ من شدّة الألم». كذلك عذّبوا الكبار، وتتذكّر ما فعلوه بأحد أقربائها حيث «ربطوا رجلَيه في سقف البيت ورأسه إلى أسفل وكانوا يعذِّبونه عذاباً شديداً».أفعال فرنسا لا يُمكن تصوُّرها.

كمين «جراح» كما روت تَبعاته

بالدقّة والتصوير الحيّ والحماسة والأحاسيس نفسها التي كانت تعيشها في تلك الأثناء، وبالأماكن والمواسم وأسماء من حولها وحالة الطبيعة، تحكي على «كمين جراح»[10] كأنّها تكتب سيناريو فيلم لا يحتاج سوى إلى وضع الكاميرات للتصوير،

(9) اسمه السعيد ويطلقون عليه بابا «دودح» بمعنى الصغير جدّاً، بينما كان عظيم البنية الجسمانيّة. كانوا يستعملون الأضداد لتفادي الحسد أو الشؤم.

(10) يُطلق عليه في الكتابات والإعلام الكولونياليّ اسم «كمين باليسترو»... وباليسترو اسم أطلقه الفرنسيّون على منطقة «الأخضريّة» حاليّاً (سُمّيت على اسم الشهيد سي لخضر واسمه الحقيقيّ رابح مقراني) تيمُّناً واعتزازاً بمعركة باليسترو في إيطاليا التي وقعت في أيّار/مايو 1859 والتي انتصر فيها الجيش الفرنسيّ الإيطاليّ انتصاراً ساحقاً على =

في أماكنها الطبيعيّة. المعركة ـ الكمين التي لم يُكتب عنها سوى القليل جدّاً، ما كتبه الرائد عزّ الدّين[11] وما نقلته عنه مؤرِّخة فرنسيّة اشتغلت على أرشيفات الحرب التحريريّة الجزائريّة في سنوات التسعينيّات[12] عن تلك الحادثة التي كبّدت فرنسا خسارة كبيرة، تروي نساء المنطقة من مُتابِعات الأحداث وتأتيهنَّ الأخبار من المُجاهدين مثل زوجة خال والدتي (خالتي عزيزة[13]) عن تلك التفاصيل المؤلمة بسياق طبيعيٍّ جميل، إذ تربط تاريخها بفصل جني، الباكور، بواكير التين، وتربط الحدث بإضراب لا تعرف أيَّ الإضرابات كان؟ هل إضراب الثمانية أيّام أم غيره؟[14]: «أتذكَّر بأنّ ذلك كان في فصل الباكور، طلب منّا «خالي» أن نقوم نحن النساء والفتيات بجني الباكور للمُجاهدين الذين سيأتون، لأنّ بيتَنا بكلّ بساطة كان «مركزاً» لاستقبال المُجاهدين والكتيبة كان يصل تعدادها حتّى 600 شخص. وكلّ البيوت المُجاوِرة تستقبل الجنود وتسهر على راحتهم من مأكلٍ وملبسٍ وتسهر على راحتهم. كانوا عندما يأتون، ومن كثرة المشي ينزعون أحذيتهم، فكانت تُنزَع معها «الجلود الدامية من تحت أرجلهم مع الجوارب». وصلت في ذلك اليوم، مع الجيش الذي لاذ بالفرار بعد الكمين، البغالُ المحمَّلة بألبسة الجنود الفرنسيّين الذين قُتلوا في جراح. أخذت النساء، ونحن الفتيات، تلك الملابس لغسْلها في الوادي. فكانت مَن تغسِل تغسِل ومَن تعصر تعصر ومَن تنشر تنشر... كلّ واحدة تقوم بمهمّة... مياه الوادي أصبحت حمراء من الدماء... القبّعات بها بقايا مخّ الجنود الفرنسيّين والألبسة أيضاً مشبعة بالدِّماء. وكنّا ننشر تلك الألبسة ونغطّيها بالأغطية الصوفيّة «الحياك» بعدما

= جيش الإمبراطوريّة النمساويّة... وغيَّروا اسم البلدة القديم المحلّي الذي كان قبل الاستعمار، وهو «آيت أولمو». كما تقرَّر إنشاء بلدة باليسترو الفرنسيّة من طرف نابليون الثالث في العام 1869.
https://fr.wikiqube.net/wiki/Ambush_of_Palestro

(11) واسمه الحقيقيّ «رابح زراري» ضابط من ضبّاط جبهة التحرير الوطنيّ، كان قائد الكتيبة الإقليميّة المُسمّاة «كوموندوس علي خوجة» في الولاية الرّابعة. و«علي خوجة» واسمه الحقيقيّ «مصطفى خوجة» قائد عسكريّ أنشأ فرقة كوموندوس ونفَّذ عمليّات عدّة أبرزها «كمين باليسترو» أي «كمين جراح»... وكان قائد القوّات البحريّة الفرنسيّة اسمه هارفي أرتور.

(12) يتعلّق الأمر بـ: «رافائيل برانش»مؤلِّفة كِتاب: L'embuscade de Palestro. Casbah Edition, 2010

(13) زوجة خالها الشهيد مسعود تشينة الذي سُمِّيت مدرسة القرية باسمه، وأخيها أحمد أيضاً استشهد في مشهد يحتاج إلى وصفٍ في مكانٍ آخر وهي زوجة أخ جدّتي وابنة عمّها.

(14) كان إضراب الطلبة الجزائريّين الذي انطلقَ في 19 أيّار/مايو 1956، وكان كمين جراح في 18 أيّار/مايو من السنة نفسها. بينما إضراب التجّار، إضراب الثمانية أيّام كان من 29 كانون الثاني/يناير إلى 4 شباط/فبراير من العام 1957.

نقوم بنشرها فوق الأشجار الصغيرة التي تُغطّيها أشجار الخرّوب الكبيرة، المحاذية للوادي كلّما رأينا طائرة العدو[15] تُحلِّق للبحث عن المجاهدين بعد ما حدث بجراح....وبمجرّد أن تغادر المكان كنّا نسرع وننزع الأغطية لكي تجفّ الملابس... وهكذا تعود الطائرة ونعود نحن للتغطية والتمويه... تتذكّر والدتي أنّها رأت «شارل ديغول» بطوله و«ماسيو»[16] بالبيدر المحاذي لبيتهم عندما نزلوا بمروحيّتهم «الموشارة»[17]... وهذا ربّما بعد ردّة الفعل عمّا حدث في منطقة جراح غير البعيدة عن منطقتنا بحارة؛ حيث كان الجنود يأتون للمنطقة للاحتماء والتموين... كما كانت تحكي على الممرِّضة «باية الكحلة»[18] والسي عبد الله الذي كانت تشتغل تحت إمرته... كما حدّثتها خالتي عزيزة أنّه كان يأتيهم العربي بلمهيدي، وسي لخضر، والسي عبد الله...

«مُجاهدات... على يخوتهنّ»

عبارة جاءت متأخِّرة بعدما أحبطت خطّتها في الالتحاق بالجنود. كان يا ما كان حكاية فتاة ثائرة هي وقريباتها. فتيات لم يدخلْنَ لا كتّاب ولا زاوية ولا مدرسة جمعيّة العُلماء ولا المدرسة الفرنسيّة. ولم يكنّ يعلمنَ ما معنى الانخراط في تنظيماتٍ سياسيّة او طلّابيّة. لا يستمعْن للراديو الذي لم يكُن أحدٌ يمتلكه. ولا تصل إلى عندهنّ الصحف ولا المنشورات. وإلى حدّ الساعة لا يُمكن لغوغل ومعلوماته أن يجد اسم المنطقة التي

(15) قُتل في كمين جراح 21 وهناك مَن يذكر 18 جنديّاً فرنسيّاً وأخْذ المُجاهدين رهينة واحدة. وكان الإعلام الفرنسيّ قد تحدَّث عن تنكيلٍ كبيرٍ ومتوحّش بالجثث من ذبحٍ وفقءٍ للعيون وغيرها من الأفعال التي وصفوها بالهمجيّة والبدائيّة، الأمر الذي لم يكُن كما جاء في إعلامهم وشهاداتهم بحسب المؤرِّخين. فكانت ردّة فعل الفرنسيّين قاسية، وهي تدمير القرية وتهجير مَن بقي فيها. وطاوَلَ الانتقام إلى المناطق المُجاورة.

(16) بعد كمين باليسترو، قام الجيش الفرنسيّ بتهجير سكّان قرية جراح وتدميرها انتقاماً لمَقتل الجنود الفرنسيّين تحت قيادة المُلازم «آرتور». وتولّى الجنرال ماسيو عمليّة عسكريّة كبيرة، بنحو 3 آلاف رجل، شملت منطقة عمال وماجاورها حتّى بوزقزة. ترهيب كبير للريفيّين وقتل وتعذيب... و«بحارة» بلدة أمي تقع بين هاتَين المنطقتَين. وتمّ قتل 50 متمرّداً وتوقيف 30 مُشتبهاً بهم. لتفاصيل أكثر ارجع إلى كِتاب «رافائيل برانش» وفيلمها الوثائقيّ عن الكمين.

(17) من الكلمة الفرنسيّة «mauchard» أي الواشي. و«الموشارة» صيغة مؤنّثة للطائرة العسكريّة التي كانت تظلّ تحوم حتّى تَجد مَن تبحث عنهم لتقوم بإنزال الجيش في أيّ مكان ومهما كانت طبيعته.

(18) واسمها الحقيقي «تومية لعريبي» وتُعتبر من أولى المُمرّضات اللّواتي التحقْنَ بالجبل وبجيش جبهة التحرير في منطقة باليسترو تحت قيادة علي خوجة. ولأنّها سوداء البشرة، كانت تُلقَّب بباية الكحلة. وكانت معروفة بين القرويّين ومحبوبة لأنّها كانت تقوم بمُعالجتهم ومُساعدتهم طبيّاً وصحيّاً.

كنّ يسكنّها. فتاتان تُقرِّران الالتحاق بالجنود والجبل، وهُما مع أقرانهما من الصبيان والفتيات أسهموا في الثورة بما كانوا يكلَّفون به من الكبار كأن: «يمسحون آثار أقدام المُجاهدين الذين يأتون إلى المنطقة ويبقون في بيوتهم، وذلك باستعمال «الشطب» أي أغصان من شجرةٍ ذات أوراقٍ ويمسحون بها تلك الآثار، أو يرعون نعاجهم التي غالباً ما يُموِّهونَ بها العسكر «فعندما نرى شاحنات العسكر التي تمرّ بمنطقتنا، ننتبه إنْ كانت تُغادر مليئة بالعسكر أم فارغة أو ناقصة فنعرف أنّهم في مكانٍ ما للقيام بكمينٍ للمُجاهدين فنُسرِع بنعاجنا لإبلاغ المُجاهدين بما رأينا ولاحظنا».

أمّا عن قرارها بأن «تلبس» أي ترتدي الزي العسكريّ، زيّ جيش جبهة التحرير الوطنيّ، أو بالأحرى المُجاهدين، فتقول إنّ ذلك لم يكُن جزافاً (برك برك) بل نتيجة الاضطهاد الذي كانت تتعرّض له والتحرّش بها من طرف الجنود الفرنسيّين. فتتذكّر كيف كانت تُسأل في كلّ مرّة عن مكان زوجها، يعتقدون أنّها متزوِّجة لأنّها كانت مكتملة البنية وتبدو أكبرَ مِن سنّها. يتركون الجميع ويتّجهون صوبها. ثمّ كانت تتعرّض للتفتيش الجسمانيّ الدقيق من طرفهم ويلامسون كلّ مَواضع جسمها الحسّاسة «كلّ مرّة يفرعسوني... كلّ مرّة يفرعسوني». وعندما تتحدّث عن اللِّباس، على الرّغم من أنّني لم أكُن أرتدي فساتين البنات، بل كنتُ ألبس قمصانَ أخوالي التي يتركونها بعدما أُعيد خياطة بعض الأجزاء فيها وتهيئتها لتتلاءم وبنيتي... كان يُطلق عليها «بلوزة مورسيليس» كنتُ أنزع لها الأزرار مثلاً وأخيطها لتصبح مثل الجبَّة.

عن اللِّباس فَتَحَت فقط قوساً، لأنّه لا يُعتبر مُهمّاً في سياق الحديث. تُواصل عن قرار الالتحاق بالثوّار. فأبلغتُ ابنة خالي أنّني سأحمل السلاح على كتفي وكلّ مَن يقترب منّي سأطلق الرصاص عليه. أعيش سعيدة أو أموت شهيدة ولا أموت «محقورة» أو «مذلولة». تواصل رحلة تحرُّرها. «لو اتّجهنا للجامع مباشرة لكنّا تحصّلنا على الزي العسكريّ ولكنّنا صعدنا إلى الجبل... قصدنا أحد المسؤولين «السّي سليمان» الذي بنفسه اتّجه للمسؤول عن المنطقة «السّعيد علي ارّمضان»[19]، فأخبره بقدومنا وبأنّنا ننوي الالتحاق بالمُجاهدين. جاء المسؤول على الناحية لمقابلتنا، فقال أردتما أن تتجنّدا وتأتيان مَعنا... اليوم سبت

(19) لحدّ الساعة مازال الناس يُطلقون على بعضهم البعض الأسماء الثلاثيّة بصيغتها الأمازيغيّة: سعيد بن علي بن رمضان أو باسم الانتماء للجماعة او القبيلة، وهذا على الرّغم من فَرْض ألقاب عائليّة لا تمتّ بصلة لثقافة =

وغداً أحد... يوم الإثنين سيأتيكما الزي العسكريّ للجامع، بالقرب من الزيتونة، على الساعة الرابعة... فرحنا فرحة لا توصف، وعندما قرب الموعد، اتَّجهنا صوب مغارة بالجبل (تيفريت) للمبيت هناك لانتظار اللّحظة الحاسمة التي نستلم فيها اللِّباس... مغارة محاطة بأشجار السرو، قمنا برصّ الحجارة عند فوهتها حتّى نتفادى دخول الحشرات والحيوانات والذئاب خصوصاً، وتركنا منفذاً لنُراقب المارّة. ونحن كذلك، لاحظنا مجموعة من المُجاهدين في طريقهم إلى بيتنا... في ما بعد علمتُ أنّ والدتي استنجدت بهم وتوسّلت إليهم ليعودوا عن قرارهم ويرفضوا تجنيدي. القرار كان صعباً جدّاً لولا أنّ أحدَ الجنود الكبار في الجبهة توسَّط لها لدى مَن يُقرِّرون. أتذكّر جيّداً مَن أتى إليها... وكانوا: «سي حميدات وموسى ن علي رمضان وعومار ن علي أعومار ورمضان سلف خالتك»[20]. وتتذكّر أسماءهم ولم تكُن تدري سبب مجيئهم إلّا لاحقاً عندما بحثت عنها إحدى أخواتها، وبدأت تنادي تعالي لقد أحضروا لكما اللِّباس. وعندما وصلتا إلى البيت، كلّمهنّ القائد سي حميدات، وسألهنّ: «... جئتما (للتسجيل بقائمة المجنّدين) من أجل الالتحاق بصفوف جيش الجبهة، وماذا لو وجدتما العسكر في الطريق»؟ فأجبته (تقول والدتي) «كنتُ سأقول لهم كنتُ بطريقي إلى الدكّان (دكّان موح الحسين)[21] لأشتري الصابون». ثمّ سألني سؤالاً آخر: «ولو أعطاكِ أحدهم بندقيّة فهل بإمكانك الذهاب بها إلى معسكر الفرنسيّين بقدارة[22]؟ هل يمكنك فعل ذلك؟ قبلت والدتي التحدّي بإجابتها هذه:

«... قلتُ له، كلّ شيء بالإثبات. أعطني مسدساً فإذا عدتُ إليك مِن دون أن آخذ حقّي وأقتل ضحيّتي «(نجيب شاتي) افعل بي ما تشاء. وإن قتلت ومتّ الله يرحمني أعيش سعيدة أو أموت شهيدة. كان هذا شعارنا أنا وفاطمة ابنة خالي». ثمّ نادى على

= الجزائريّين وأحياناً ألقاب مُشينة، جَعلت الكثيرين يغيّرونها بحُكم محكمة. جاءت هذه الألقاب بموجب إصدار الإدارة الاستعماريّة الفرنسيّة لقانون الحالة المدنيّة أو قانون الألقاب وهذا بتاريخ 23 آذار/مارس 1882.

(20) لفظ السي (مثل السيّد) يُطلق على مَن تتلمذوا بالزوايا والمدارس القرآنيّة، من حفظة القرآن الكريم. ورمضان كان ضابطاً في جيش جبهة التحرير وهو أخ زوج أختها الكبرى، السيّدة حوريّة.

(21) دكّان موجود بالقرب من بيت المسؤول الذي قامتا بتسجيل اسميهما عنده... وموجود في منطقة تدعى «الحدورة».

(22) «قدارة» بلدية من البلديّات التي تتبع ولاية بومرداس حاليّاً، وتوجد ضمن منطقة «بوزقزة» اسم يطلق على الجبل، أو الجبل الأخضر، حيث كبَّدَ الثوار فرنسا خسائر كبيرة. وتقع شرق العاصمة الجزائر على بعد حوالى 52 كم. و«بحارة» ضيعة والدتي تبعد عن قدارة شرقاً بحوالى 3 كيلومترات.

«خالي علي» و«خالي رابح» (الأوّل خالي لأنّه مسؤول عنّي والثاني والد فاطمة) وقال لهما: «... الرجال لم يتحمّسوا لمساعدة الثورة، بينما الفتيات أخذتهنّ الغيرة لمدّ الثورة بدمهنَّ وجهدهنّ أو بأيّ شيء كان. لم يخشين أحداً سوى الله. وأَقْسَمَ لهما «لو أنّ أحداً مسّهما بسوء فسأقتله وأرميه بالشعاب». وأضاف السي حميدات قائلاً: «هذوا كي يرقدوا فالفراش راهم موجاهدات... ما دام قلبهم معانا وروحهم معانا حتّى واحد ما يمسّهم... رآهم لابسين ماليوم... يرقدوا يقعدوا واش ايديروا موجاهدات» (هؤلاء حتّى إذا نمْنَ فهنّ مجاهدات... ما دامت قلوبهنَّ وأرواحهنَّ معنا ولا أحد يجرؤ على ايذائهنّ... إنّهنَّ مجنَّدات من اليوم... وإنْ نمْنَ، وإن بقين جالسات... أيّ شيء يقمن به فهنَّ مجاهدات). لكن لا أحد يجرؤ أن يقترب أو يتعرّض لجدّتي، لأنّها أمٌّ كانت تخاف على ابنتها، ولأنّ البيت الكبير بيت مُجاهدين وتحت عين السلطة الاستعماريّة وأعين الواشين... ولأنّها فتاة صغيرة لا يُمكن لوالدتها أن تتخيَّلَ أنّها بالجبل مع «الذكور» وإن كانوا مجاهدين... لذلك فبمجرّد مغادرتهم المكان، أشبعت ابنتها ضرباً... الضرب كان موجعاً، لكنّ الثورة في قلب ووجدان البنت ذات الـ 14 عاماً زادت جذوتها. ولم تترك عملاً في سبيل الثورة إلّا وقامت به. وهي في تلك السنّ قام أحدهم بوشايتها لدى العسكر، ممَّن تركوا الجزائر عند الاستقلال واستقرّوا في فرنسا، وقالت لي عن هذه الحادثة: «لو بحثوا في الأرشيف الفرنسي لوجدوا أنّني مسجّلة عندهم. كانوا يلقبّونني يالفلاڤة[23]. بيعوني الحركى[24] لولا تدخّل زوج خالتك، الذي واجه الفرنسيّين الذين جاؤوا لأخذي، وأبلغهم بالضرب الذي ضُربته عندما سمعت والدتي بخبر رغبتي باللِّحاق بالثوّار... وبأنّنا نعيش في المحتشد، الآن، وأنّنا محاطون بالسياج والأشواك، فأين أجد المُجاهدين وأين يجدونني... ثمّ قال لهم لو أحضرتموها إلى المركز، والله لن أحمل سلاحكم مرّة أخرى فوق كتفي... تقول: «هو مَن أنقذني»[25].

(23) اسم أَطلقه الفرنسيّون على الجزائريّين المُحاربين من أجل استقلال بلادهم. وكانت التسمية عبارة عن تهمة تؤدّي إلى السجن والتعذيب والموت.

(24) الحركي أو الڤومي اسم يُطلق على مَن ساعدوا فرنسا سواء كقوّة مسلّحة أو بالوشاية على الثوّار، والذين يُساندونهم ويساعدونهم من المدنيّين. وتمَّت الوشاية بها في عدّة مناطق وفي عدّة مُعسكرات.

(25) زوج أختها كان مع المُجاهدين، كان يشكّل «الرابط بين الثوّار» من خلال نقل الرسائل والسلاح والتنقُّل إلى كلّ مكان. ثمّ التحق بالجيش الفرنسيّ وهو مَن بقي يُنبّهها إلى ما يُحاك ضدّها من طرف الجيش الفرنسيّ بفعل الواشين. =

هزّتها أهوال الحرب وما كان يقوم به الجيش الفرنسي من قتلٍ للنساء والأطفال وتعذيب الرجال أمام أعين الأطفال. تروي حكاية مقتل إحدى قريباتها بطريقةٍ بشعة بقصفٍ عشوائيّ، وهم أطفال كانوا مع عمِّهم وبناته يجنون الرّمان. كنّ يحملنَ أكياس الرّمان عندما بدأ القصف من على ربوة «تيزي» صوب القرية ومنعهنّ العمّ من الهروب حتّى لا يتّجهون بمدافعهم صوبهم. كانوا يمشون والغبار يتطاير من أمامهم وخلفهم والأحمال على رؤوسهم. عندما وصلنا إلى بيوتنا، تقول: «انقسمنا على حِدة، أختي، وزينة وفاطمة ابنتا عمّي اتَّجهن إلى بيت عمّي السعيد، وأنا ومشماشة وموني الله يرحمها دخلنا بيت عمّي قادر. كانا مُتقابلَين. صوت الرصاص على القرميد كالبَرَد. فضربوا مدفعاً أَحرق أحد البيوت. وزادوا بيتاً آخر. وجدوا شجرة خرّوب زوجة خالية تماماً من ورقها. وفي ذلك اليوم قتلوا «الزهرة أعومار» (الزهراء ابنة عمر) من «الشمايسة»[26]. طار رأسها وانتشر مخّها على الأرض. ومنذ تلك الحادثة التي خرَّبت البيوت والأرواح، غادرنا المنطقة. وبالقوّة أيضاً نحو المحتشد بـ«قدارة»... وهذا كلّه من تبعات كمين جراح.

«مسبّلة»[27] بعد الزواج

على الرّغم مِن قرار المسؤولين بالثورة، القاضي بمنْع الزواج من خارج القرية، إلّا أنّ والدتي تزوّجت خارج القرية، وهذا لم يمرّ مرور الكرام، حيث وشِيَ بها من طرف عبد الرّحمن جارها، الذي تعاونَ مع الفرنسيّين في ما بعد وأقام في فرنسا هو وأولاده إلى حدّ اليوم. إلّا أنّ والدتها صمّمت على عدم تزويجها، لا هي ولا أختها له على الرّغم مِن كلّ محاولاته التي باءت بالفشل. حتّى أنّه هدَّدها بالقتل، ولأنّها لا تبالي، أقسمت له بأنّه لن يستطيع لمسَ شعرة من شعر رأسها. فلم يجد غير وشايتها للمسؤولين على الثورة

= وكان في كلّ مرّة يُرسل إليها والدتها لتحذيرها. وهذا بعدما تزوّجت وسَكنت مدينة سان بيار سان بول، أولاد موس حاليّاً.

(26) نافذة صغيرة تسمح بدخول أشعّة الشمس إلى البيت.

(27) العديد من المصطلحات ظهرت في أثناء الثورة التحريريّة، مثل «المسبل» وهو الفرد الذي يقوم بأعمال مهما كانت طبيعتها سياسيّة أو مدنيّة أو إداريّة من أجل الثورة التحريريّة. وهذا الفرد قد سبل نفسه من أجل الوطن ولا يخشى الموت. وكذلك «الفدائيّ» ذلك الذي توكَل له مهمّة القيام بعمليّات عسكريّة لفائدة الثورة، داخل المُدن بصفةٍ خاصّة. أمّا «المجاهد» فهو يعني كلَّ مَن يحمل السلاح لمُواجَهة المُستعمِر.

باعتبار أنّ «قدورة» انتهكت القرارات وأوامر المنع تلك: نادت «رمضان» صهرها، وقالت له أنا أعلم أنّكم ترفضون تزويج البنات مِن خارج القرية لكنّني لا أحبّ ذلك الشخص فهل أُرغَم على ذلك؟ فنادى رمضان عبد الرّحمن وقال له: ما بك هل أنتَ مريض؟ أحدهم لا يحبّ أكلَ الخبز المحروق فهل ترغمه على أكله؟ فأمره بأن لا يكلِّمها أبداً، وإلّا فهو مَن سيُواجهه. وعندما سكنوا المحتشد، أيضاً «وشى بي (بيعوني) للعسكر الفرنسي بحجّة أنّ والدتي زوَّجتني لأحد «الفلاقة». والحركي الذي يشتغل لمصلحة فرنسا، هو أَولى بابنة منطقته. وجاءها الضابط يستفسر عن الحادثة، وقال لها كيف تزوِّجينها لفلاق؟ فردّت عليه والدتي: «حنا منين تخرج الكلمة تخرج العمر» من أين تخرج الكلمة تخرج الرّوح، دلالة على الالتزام والوفاء بالعهد... «وبأنّها زوّجتني لابن عمّتي وليس لرجل غريب». تزوّجت مثل زيجات تلك الأيّام عام 1958، وهي ابنة 17 سنة، مِن دون أيّ مظاهر للاحتفال أو الزينة. المهمّ تزوّجت لتستر مِن أيّ حادثة، ولاسيّما الاغتصابات وفقدان الشرف وأن تكون في عصمة زوج «يشكمها». تواصِل والدتي مشوار العمل النضاليّ المستمرّ فتقول: «مجاهدو منطقتنا يعرفونني. وعندما أَمرت فرنسا بإخلاء القرى والمداشر وجمع الناس بالمحتشدات، هرب المجاهدون ولجأوا إلى المُدن، والمناطق الحضريّة. لا يوجد مَن يؤكِّلهم. ولا مجال لإيقاد النار بالبيوت المهجورة، مِن أجل تحضير الطعام. فعندما يُلاحِظ العسكر الدخان يشرعون في إطلاق النار. وحتّى عندما تصل مواسم جني الزيتون أو «الخريف» (موسم الفواكة والغلال الصيفيّة، ولاسيّما التين) نعود إلى حقولنا بطلب تسريح من العسكر. تحوّل بيت زوجي الذي كنتُ أقطن فيه مع حماي وحماتي وأختي وزوجها، إلى بيتٍ يقصده المجاهدون للتزوُّد بالمؤن. كان يأتي إلى عندنا حتّى 15 فرداً من المُجاهدين للأكل مع أنّنا نسكن بالقرب من المعسكر، بقلب مدينة سان بيار سان بول. وكنتُ أضع إشارة لهم لتوضيح الوضعيّة (الأمنيّة) لهم: فعندما أرى أنّ الوضع خطِر، أضع قطعة قماش سوداء على شجرة العنّاب التي بالقرب من البيت، وعندما يكون الأمان أضع قطعة قماش بيضاء... وإن لم يأتوا للأكل بالبيت نُرسِل لهم المُشتريات التي يحتاجون إليها، وهي أكلٌ، ألبسة، أحذية، وكلّ ما يلزمهم (القُضيان) إلى بيت السيِّدة «ورشانة»... لأنّ لديها ببيتها مخبأ سريّاً تضع فيه كلّ مؤن المجاهدين التي تصلها من الشعب. وبعد مقتل سبعة من الجنود في منطقة «الأربعطاش» في إحدى المغارات،

قبضوا على أحدهم حيّاً، تعرفه والدتي لأنّه مِن المناطق المجاورة لقريتها. وبعد التعذيب والاستنطاق وشى بها وكانوا يُحاصرون بيتها كلَّ ليلة، وهي لم تكُن على علم بذلك، حتّى أرسل لها كالعادة زوج أختها الخبر مع والدتها، فقال لهذه الأخيرة: «قولي لها ما الذي تفعله هناك... هنا فلتت منهم بفضل الله بعدما وشوا بها... والآن زاد أحدهم وقد وشى بها»... «ابن الباشا» مَن وشى بها، فأرسلت فرنسا قوّةً مشكَّلة من خمسة معسكرات لتطويق المنزل من بينها: معسكر بنورة، زقاغة، الخروبة وجا ماس(جي ام اس)[28]. وهذا بعد الإمساك بِـ «بن الباشا» الذي أتوا به بكيس على رأسه (بوشكارة)[29] «وشى بنا وأتى به العسكر وقال إنّه كان يأكل عندنا وإنّه يوجد مخبأ في بيتنا... وإنّني أنا أخت «أوليشي» (واسمه رمضان أخ زوج أختها)... قلتُ له أنا أخت «أوليشي» فردّ بالإيجاب... ثمّ دخلتُ البيت وأحضرتُ الدفتر العائليّ... أخي عمره 11 سنة صغير والاسم ليس نفسه وأنا بحياتي لم أسمع بهذا الاسم... إذا افقدتموه عقله بالتعذيب وأصبح يهذي... أخي ها هو وأنا «بوزيد» (لقب زوجها) و«تشينة» (لقب عائلتها)... فقلتُ لهم هذا لا أعرفه ولا أعترف به... ولم يأتِ إلى عندي ولم أرَه... ثمّ أخذ الجندي الفرنسي بمؤخَّرة سلاحه وضربني فأوقعني عند باب البيت... ثمّ تدخّلت جارتها «فاطمة» التي كانت تُحسِن الفرنسيّة وقالت لهم: ما هذا؟ ماذا تريدون؟ أتريدون أن تفقدوا المرأة عقلها؟ على ماذا تبحثون؟ قالوا لها نبحث عن المخبأ... قالت لهم ادخلوا احفروا بدبّاباتكم... لن تجدوا شيئاً... ثمّ عن قريب سيُرفرف العَلم... وسيتمّ وقف إطلاق النار... إنّهم يتكلّمون ويتفاوضون عليه».

في ما بعد علمتْ والدتي أنّ العسكر الفرنسي يتربّص بها، وهي التي كانت تعتقد أنّها تخلّصت من وشاية «ابن الباشا»[30] الذي أقسم لها بأنّه سيأخذ ضحيّته من بيتها. وواصلت، بكلِّ الخوف والهواجس مِن أن يكتشف أمرها مسيرة النضال إلى جانب زوجها وصديقتها

(28) أسماء مناطق جبليّة مُحاذية لبوزقزة والتابعة لمُقاطعة الجزائر إبّان الاستعمار... والحيّ الأخير GMS هو اختزال لفِرق الأمن المُتنقّلة، والتي كان يطلق عليها من قبل اسم فِرق الشرطة الريفيّة المُتنقّلة (GMPR). وتمّ إنشاؤها بناءً على القرار الحكوميّ في 24 كانون الثاني/يناير 1955 وبموجب مرسوم الحاكم العامّ للجزائر. ثمّ تحوّلت مقرّاتهم بعد الاستقلال إلى مساكن شعبيّة.

(29) كان يوضع على راس الواشي كيسٌ حتّى لايعرفه الشعب، ولاسيّما مَن يواجههم حتّى لا يتمّ الانتقام منه... وتُخفى هويّته.

(30) اسم مُستعار لأحد الوشاة ممَّن تعرفهم ويجاورونها في السكن وقت التجمُّع في المُحتشدات. وكان جنديّاً ضمن جيش التحرير، قبل إلقاء القبض عليه. وليس الاسم الوحيد الذي كانت تعرفه وكان «حركيّاً» و«خائناً» وتحوّل بقدرة =

خديجة... إلى أن جاءت عمليّة تجريد أحد الشهداء، عبد السلام، من أسلحته وما كان بحوزته من وثائق: «... كنتُ دائماً أحمل ابني مصطفى وأخرج للتمويه به... عندما قتلوا مجموعة من المجاهدين في مخبأ أحدهم بعدما كانوا قد تفرّقوا، جماعة منهم أخذت سيّارةً وعبد السلام ذهب في درّاجة ناريّة... عندما وصل الأوائل المخبأ قتلوهم داخله بأولاد حمادة... بينما عبد السلام قتلوه داخل حقل من حقول القمح بالقرب من مدينة بودواو... كان ذلك في شهر ماي (أيّار/مايو)... فأسرعتْ نحوه خديجة بعدما أعلمها جيش الجبهة بالحادثة لأنّ زوجها كان من مفجِّري الثورة التحريريّة بالأوراس وأخذت سلاحَه. أَعلمت والدتي بضرورة لقائها لتعطيَها السلاح. عندما اقترب موعد وقف إطلاق النار كان الوضعُ سيِّئاً جدّاً. فالدبّابات والدوريّات في كلّ مكان تقتل وتُنكِّل وتُعذِّب. كثيرون من الناس تراجعوا عن دعْم الثورة من شدّة الذعر، فلم يبقَ سوى مَن آمنوا بالقضيّة إيماناً مُطلقاً. عند عودتها وجدت كالعادة الفرنسيّين في كلّ مكان ومن معسكراتٍ عدَّة مع بعض الجزائريّين العُملاء. وعندما رأتها جارتها قادمة من بعيد بدأت تقوم بحركات لتُنبِّهها ممّا ينتظرها. وبمجرّد وصولها باغتوها بالسؤال أين كنتِ؟ كنتُ أحمل ابني لأسكِته وأخفِّف عنه وعكاته الصحيّة. وتقول: «فعلاً كان مصطفى مريضاً وكان الطبيب اليهوديّ الذي كان يقطن الرغاية يأتي كلّ يوم ليشرح لي كيفيّة أخذ الدواء والرضعات. كنّا وفي كلّ مرّة نقوم بوخز الأطفال لكي يبكوا ويُقلقوا الجيش الفرنسيّ ويتركونا» كانت تُلاحِظ هذا الأمر وهي طفلة عندما كانت نسوة القرية يجتمعْنَ في مكانٍ واحد وهنَّ يضممْنَ أطفالهنّ إلى صدورهنّ. فعندما يتقدّم العسكر صوبهنّ يوخزن الأطفال بقوّة ليصرخوا ويُحدِثوا فوضى وصخباً.

مُشاركة النساء في الثورة التحريريّة... ألَمُ النسيان والتجاهُل

كلّ الدراسات أجمعت على أنّ مُشارَكة النساء في الثورة التحريريّة كانت قليلة مُقارَنةً بالرجال. وحتّى اللّواتي شاركْنَ فعليّاً، وخصوصاً نساء الأرياف والقرى من غير المتعلِّمات، تمّ تغييبهنّ من التاريخ المكتوب، ومن ذاكرة بعض «المسؤولين». ومع

= قادر إلى مُجاهد وله العضويّة في وزارة المُجاهدين. يا الله كم كان يحزّ في نفسها أن يُرفض ملفّ عضويّتها وتُقبل عضويّة هؤلاء ومَن هُم على شاكلتهم.

هذا، لمَن يبحث، تقول والدتي سيجد أنّ طلب التحاقي بجيش جبهة التحرير الوطنيّ، أنا وفاطمة، قد سُجِّل في وثائق مسؤولي الناحية، وحتّى في أرشيف الحكومة الفرنسيّة التي لا تترك شاردةً أو واردةً. لكنّ بطولتها لم تسجَّل بعد أن قدّمت شهادتها وشهادة مَن كانوا مسؤولين في تلك الفترة ومَن كانوا من مُجاهدي المنطقة، ولم يعترف بكلّ ذلك المسؤولون في وزارة المُجاهدين بعد الاستقلال[31]. تعاقَبَ وزراءٌ عدّة وأَفرجوا عن الاعترافات تحت الطاولة. وكان الموظّفون ممّن حفظوا وجهها وعصاها وكرسيّها المتحرِّك يقولون لها إنّ لجنة الاعترافات أُغلقت منذ أكثر من 20 سنة. انتظري، ربّما سيُعاد فتحها وتُدرَس ملفّات الاعتراف مرّةً أخرى. وكأنّهم يقولون لها لا تنتظري.

كما حكت لي أنّه في إحدى اللّيالي قرّرت 15 شابّة الالتحاق بالثورة والتسلّح في صفوف ثوّار جبهة التحرير آنذاك. فتيات من منطقة عرقوب في الأخضريّة، ممَّن تكون التقارير العسكريّة الكولونياليّة قد أفردت لهنّ حيِّزاً خاصّاً. لكنّ التاريخ المحلِّي والوطنيّ أَنكر الحادثة. لأنّ التاريخ يُكتَب من أفواه و«شنبات» الرجال وبإحساس التعالي وليس من باب المسؤوليّة التاريخيّة. على التاريخ أن يقف ليس لتخليد ذاكرة مَن عاشوا مرحلةً من المراحل، بل لإنصاف ذاكرةِ مَن عايشوا وعايشْنَ الوقائع لحماً ودماً وليس فقط بالإدلاء بشهادات خلف مكاتب «القسمات». بل لتخليد الشعب المُنتشر بين الجبال الوعرة ولا زال الكثيرون منه يعيشون أوضاعاً مُزرية ولا يزالون يُحبّون الجزائر ولا يُمكِنهم التخلّي عنها ويدفعون الثمن غالياً.

حتّى الحيوانات شاركت في الثورة

كانت والدتي تتكلّم في كلّ مناسبة عن مُشارَكة الحيوانات في الثورة لأنّها أيضاً عانت الاضطهادَ والتعرُّضَ في كلّ لحظة للموت. ومَن يسمع عباراتها قبل أن تُكمِل فكرتها

(31) بعد الاستقلال رفض والدي أن ينتسب بعضويّةٍ رسميّة لقائمة المُجاهدين، بحجّة أنّه قادر على العمل وإعالة عائلته وكان يريد أن تذهب الإعانات إلى أرامل الشهداء وأبنائهم وإلى معطوبي الحرب حيث كان يأتيه العشرات ممَّن نَاضلَ معهم من أجل أن يُقدِّموا شهاداتهم عمّا قدّماه هو ووالدتي في سبيل الاستقلال. وكان دائما يرفض. ولأنّ كلمة المرأة لم تكُن مسموعة، لم يُترك الخيار لوالدتي التي كانت ترى العضويّة تلك حقّاً من حقوقها. ومنذ العام 1995 قدَّمت ملفّها الذي رُفض بعد سنوات عدّة من دون إعطاء أيّ تفاصيل، ثمّ طُعنت في النتيجة. وبقي الملفّ في وزارة المُجاهدين. وبقيَتْ تسأل عنه حتّى عشيّة وفاتها.

يعتقد أنّها إهانة أو مُبالَغة. لكنْ بعد كمين جراح، جاءت التعليمات الصارمة والقاضية بِـ: «... أن يُغادِر القرويّون قراهم مع عائلاتهم قبل 30 تمّوز/يوليو 1957 (علماً أنّ المعركة كانت في أيّار/مايو 1956)، وسيكون محرَّماً على أيٍّ كان، إنسان أو حيوان المكوث في المنطقة التي أُخلِيَت»[32] حتّى الحيوان لم يَسلم من بطش الفرنسيّين... وحتّى هو شارك في هذه الثورة. «... البغل مسكين مُجاهِد... جاهَدَ حتّى انتهت الثورة، وعندما رحلنا إلى «قدارة» بقي مربوطاً ببيت أخوالي وحيداً حتّى قتله الثوّار. لقد جاهد سبع سنوات. في مرّة من المرّات جاء المجاهدون إلى والدتي عند الغروب وطلبوا منها أن تُعطِيَهم البغلَ لحمل أحد الجرحى. قبلت والدتي لكن بشرط، أن يُطلِقوا عليه الرصاص إذا التقوا بالعسكر أو حدث اشتباكٌ بين الطرفَين»... لأنّهم، بحسب قول جدّتي إن تركوه حيّاً فسيعود للبيت وسيحرقون كلّ ما فيه ولن تبقى زوجة مجاهد أو أيّ أحد. طمْأنها الثوّار وأخذوا البغل وانصرفوا... كما كان ابن عمّ والدتي هو مَن يُرافق الحمار في مهمّاته الصعبة وهو الطفل الصغير «أحمد» الذي على الرّغم مِن ذلك يقضي أيّاماً ولياٍل خارج القرية حيث كان يُرافقه وهو محمَّلٌ بالأسلحة، أو المُؤن عندما يشتدّ الخناق على الثوّار ولا يتمكّنوا من المجيء إلى القرية للتموين والتزوُّد بالمَأكل والمَلبس... أو أحياناً كانت تُحمَّل عليه الرسائل المُستعجلة. وهي أحمال أضيفت على مهمّات البغال والحمير التي كانت تحمل الحجارة وأكياس الزيتون والخرّوب وأكوام الحطب... الصغار فقط هُم مَن كانوا يحسّون بالحيوانات وهُم مَن كانوا يبكون ويتألّمون عندما يدوس العسكر بأحذيتهم الحديديّة على مساكن الأرانب وخمّ الدَّجاج.

بعد وفاة والدتي في 27 آب/أغسطس 2021، صمتت أخبار التاريخ الذي كانت تحمله وتقُارِنه بتاريخ التلفزيون الرسميّ والتصريحات التي كان يُعاد بثّها في كلّ مناسبة وطنيّة. وكم هو حجْم التذكير بأحداث الوطن في أثناء الاستعمار في زمنٍ كَثُرت فيه مَطالِب الحراك، وكَثُرَ المتربّصون بالوطن، وخيانة الشرفاء واعتلاء مَن باعوا ضمائرهم للشيطان أسمى المراتب... لم تكُن تؤمن بالحراك وكانت تراه من علامات آخر الزمن... ولا أحدَ سيعترف بمقدار التضحيات... وبأنّ لا أحدَ يُمكِنه إنصاف المضحّين. هناك

(32) وثيقة عرضت في وثائقي «رافائيل برانش» عن كمين باليسترو.

فقط الانتهازيّون الذين يركبون اللّحظات الحاسمة ويجعلونها مَرِنة حتّى تتوافق مع أهوائهم وأطماعهم... ليرحمكِ الله لأنّكِ جاهدتِ في سبيل الله والوطن... وأردتِ أن تدخلي التاريخ الرسميّ بنَياشينه الحقيقيّة... لكنّ مَن كانوا أعداء الثورة بالأمس القريب سبقوكِ[33]...

(33) أُخذت أجزاء من شهادات والدتي من التسجيلات التالية: تسجيل: 20 آذار/مايو 2021 ـ تسجيل 28 تشرين الأوّل/أكتوبر 2020 ـ تسجيل 12 آذار/مارس 2016.